٦ـ نماذج من شعر الجهاد ضد الصليبيين *

(قراءة نقدية)

"التاريخ هو الحاضر" .. بهذه المقولة أطرح رؤيتى لقضية شعر الجهاد ضد الصليبيين وهى العطاء الفنى متمثلا فى الأشعار التى صورت جهاد المسلمين نودا عن «دار الإسلام» .

وتسعى هذه الرؤية النقدية أن تتحسس المكان "بيت المقدس" وما حوله من مدن وقـلاع إسلامية كانت هدفا لسهام الصليبيين ، فى محاولة أن تكشف عن الصلة التاريخية بين أحداث الماضى وما تلقى من ظلال معاصرة ، كما أنها تسعى فى الوقت نفسة ، أن تقف أمام الصور الشعرية التى سجلت فنيا للمعارك التى نشبت بين المسلمين والنصارى فى تلك الحروب التى دامت قرابة قرنين من الزمان . وأن تضع هذه الصورة الشعرية داخل النسق التراثى للشعر البطولى العربى [١] . وهذه القراءة النقدية نواة لدراسة مستفيضة عن الشعر البطولى فى العصر الأيوبى .

وعلى هذا ، فالبحث يسعى أن يتعرف على الصور الوجدانية التى كثفها الشعر إبان تلك اللحظة من المواجهة الحضارية بين الشرق المسلم والغرب المسيحى الصليبى لنتعرف على دور الشعر فى البناء الوجدانى للإنسان ، من خلال الخبرة المعرفية التى يصورها فنيا كتعبير رمزى مواز للواقع التاريخى ومفارق له فى أن .

---

* ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ١٩٨٥، دار المعارف ، القاهرة

ومعلوم أن معرفة علة الشيء تساعد على امتلاكه والقدرة على مواجهته والتصرف فيه . وكلما ازداد الإنسان علما بالأشياء ازداد وعيا ، وكلما عمق وعى الإنسان أصبح أكثر تحررا . فندرك أن إنجازنا وتقدمنا يرتبط بالوعى بقدراتنا الذاتية ، وهى كامنة فينا ، وأن التاريخ ينبىء أن النجاح الذى أحرزه المسلمون المجاهدون إبان الحروب الصليبية اعتمد على تطبيق النظرية السياسية التى تؤكد على الوحدة العربية الإسلامية ونبذ التشرذم السياسى والمذهبى . وأن الثأر لكليب ، إنما هو ثأر – فى عمقه التاريخى – يتجاوز المعنى الأسطورى لمن ينشد النصر . فهو ثأر للعدوان على الحضارة العربية الإسلامية الذى امتدت شعابه السرطانية تلتهم جسد الأمه العربية فى فلسطين . ولن يتأتى ذلك إلا من خلال التعرف على القسمات الوجدانية التى تساعد على التوجه المعرفى لعلة القصور والتقصير . هنا تأتى إسهامات الفن عندما يمهد ، بأدواته الخاصة ، الطرق للوعي بماضينا والتعرف على حاضرنا ، إستشرافا لغد مشرق يسعى من خلاله الإنسان في صياغة حاضرة وقد تسلح بالخبرة المعرفية التى يتآزر فى تشكيلها الشعر والتاريخ ومعطيات الحضارة الإنسانية جميعا .

الشاعر والموت :

وشعر الجهاد [٢] يثير في الذهن تداعيات ترتبط بالتضحية ... والقتال ... والنصر والهزيمة والموت . ومن الظواهر اللافتة موقف الشاعر العربى من الموت . فعنده أن الموت كأس والمرء ذائقها ، مما دفع الإنسان العربى إلى الاستبسال فى المعارك . والموت عند الإنسان العربى من الأمور الحتمية التى لا يمكن تفاديها فهو آت لا ريب فيه . لكن

أين ومتى ؟ ! سؤال ليس له من جواب .

من هنا ذهب الإنسان العربى إلى أن الموت قد لا يدركة فى ساحة الوغى . أما الموت فى الفراش فهى ميتة الجبناء . فما مبرر التقاعس عن مواجهة الموت ؟ يقول الحصين بن الحمام المرى [٣] :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلّق هاما من الناس أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وإن كان حرص الشاعر فى الجاهلية على تأكيد قيم فردية الفارس المحارب الفرد ، فإن الإسلام قد جاء بقيم أعلت من شأن الفرد ، وأكدت فى الوقت نفسة ، على دوره فى الجماعة الإسلامية . من هنا تجرد الشعر من فرديته – ولا أقول ذاتيته – وارتبط بالقيم الإسلامية على نحو ما يصور هذا المعنى عبد الله بن رواحه :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

الدعوة إلى الجهاد :

الموروث الشعرى الذى أثمرتة الحروب الصليبية ، وثيقة فنية تعكس التشرذم السياسى والمذهبى الذى أفضى إلى أن يفشل المسلمون وتذهب ريحهم .

ومعلوم أن الحروب الصليبية التى استمرت طوال قرنين من الزمان كانت سببا فى تغيرات كثيرة على المستوى الاجتماعي والاقتصادى

والسياسى ، وإن كان بروز العامل السياسى بدأ فى اختفاء الخلافة الفاطمية وجاء هذا التلاشى معطاة للصراع الإسلامى – الصليبى – وساعد على هذا الاختفاء تفاعل عوامل التدهور والإضمحلال التى كانت تنخر فى كيان هذه الخلافة قبل الحروب الصليبية ، وأيضا تجلت هذه التأثيرات السياسية فى تدهور الخلافة العباسية بالشكل الذى قضى على أى دور فعال لهذه الخلافة فى مواجهة الهجمه الصليبية ، على حين ذابت قوى السلاجقة ، حماة الخلافة العباسية وتبددت طاقاتهم فى نزاعات داخلية .

ومن هنا بات العالم الإسلامى يفتقد الزعيم المنقذ من التشرذم ، والقادر على توحيد الجبهة الداخلية . ومن ثم ، برزت الدولة العسكرية الطابع يقودها فرسان أبطال من أمثال عماد الدين زنكى ، نور الدين محمود ، صلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس .

ويلاحظ مؤرخو الحروب الصليبية * أن العدوان الصليبى وما تبعه من زرع عدة مستوطنات لاتينية فوق الأرض العربية وما نتج عنه من انهاك لموارد الأمه العربية الإسلامية أثبتت أن الخلافة «سواء الفاطمية أو العباسية» ... لم تعد هى النمط السياسى الذى يستطيع أن يواجه هذا العدوان بنزعته الإستيطانية . من هنا برزت الحاجه إلى الدولة العسكرية الطابع التى تستند إلى التأييد الشرعي من الخلافة . وقد أدى هذا إلى صياغة العلاقات السياسية والإقتصادية والاجتماعية فى الدولة الأيوبية وفى الدولة المملوكية فى إطار الإقطاع العسكرى بحيث يتم توجيه موارد الدولة كافة نحو العمل العسكرى دفاعا عن «دار السلام» .

هكذا ظهرت إلى الوجود الدولة الأيوبية ثم الدولة المملوكية ، لكى

تضطلع بدور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامى وحضارته . وفى ظل هاتين الدولتين صارت مصر والشام بمثابة الحصن الحصين الأخير الذى يتولى مهمة الدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية .

لقد قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الخلافة الفاطمية ، ولكن الخلافة العباسية ظلت قائمة بدون فاعلية حتي أسقطها المغول سنة ٦٥٨ هجرية . كانت هذه الخلافة قد فقدت أى وجود حقيقى وفعال لها كما أن حماتها من السلاجقة إنشغلوا بأنفسهم وطموحاتهم السياسية ، ومنازعاتهم الداخلية ... فإذا ما طرقتها جحافل المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى «القرن الثالث عشر الميلادى» . سقطت فى سرعة تتفق وحقيقة الخواء والضعف الداخلى الذى كانت تعانيه . لقد بدأت الخلافة العباسية منحنى تدهورها منذ زمن طويل وتجلى ضعفها واضحا من خلال الحركات الثورية الداخلية التى أنهكت مواردها مثل حركة بابك الخرمى وثورة الزنج وثورة القرامطة . وفى القرن العاشر صار الخلفاء العباسيون ألعوبة فى أيدى الأمراء الأتراك بل أن كبيرهم الذى اتخذ لنفسه لقب «أمير الأمراء» بات هو صاحب السلطة الفعلية فى الدولة . وفى غضون القرنين العاشر والحادى عشر برزت النتائج السياسية لضعف الدولة العباسية من خلال الحركات الإنفصالية وقيام الأسرات الحاكمة المستقله فى الشرق والغرب .

وقد نجح الفاطميون سنة ٩٦٩ م فى الاستيلاء على مصر وأصبحت قاعدة لخلافتهم الشيعية . وبذلك وجدت الخلافة العباسية منافسا خطيرا لها يتمثل فى الخلافة الفاطمية التى اتخذت القاهرة مقرا لها وعلى مدى قرنين

من الزمان ، أى من قيام الخلافة سنة ٩٦٣ م حتي سقوطها سنة ١١٧١ م ، ظل العالم الإسلامى نهبا للخلاف بين القاهرة الشيعية وبغداد السنية . وكانت المنطـقة العربية هى المجـال الحيوى الطـبيعى لكل منهما للقضاء على الأخرى .

وقد تعرض حكم السلاجقة للتصدع والانقسام بعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة ٤٨٥ هـ سنة ١٠٩٢ م ، مما أضعف سلطتهم ونفوذهم ودفع الخلافة العباسية إلى محاولة إستعادة سلطانها . ولكن أهم نتائج الضعف السلجوقى تمثلت فى ظهور الحكومات المحلية التى عرفت باسم (الأتابكيات) وهى إمارات إقطاعية محلية كانت تقع ضمن التقسيم الإدارى السلجوقى .

ولقد تمثل الفشل الفاطمى فى مواجهة الهجوم الصليبى فى أنهم لم يفهموا حقيقة الغزو الصليبى . ولم يروا فيه سوى أداة تمكنهم من سحق السلاجقة السنيين الذين كانوا عدوا خطيرا يتهدد الفاطميين . ويعتقد رنسمان وغيره من الباحثين أن الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنين قد نصح قادة الصليبيين عندما استقبلهم فى عاصمته بأن يتحالفوا مع الفاطميين ليساعدوهم ضد السلاجقة . وبالفعل أرسل الفرنج سفارة إلى القاهرة لبحث إمكانية مثل هذا التحالف . وفى القاهرة كان صاحب السلطة الفعلية هو الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، وكان الخليفة ظلا باهتا ، ولقبا خاليا من أى مضمون . وكان الأفضل تواقا إلى التحالف مع الصليبيين لكسر شوكة السلاجقة ، فراودته فكرة التحالف معهم على أساس تقسيم بلاد الشام وآسيا الصغرى بين الطرفين . وبالفعل أرسل سفارة إلى

الصليبيين أثناء حصارهم لأنطاكية للتفاوض على تفاصيل التحالف . وإذا كانت المفاوضات بين الجانبين لم تسفر عن إتفاق فإن أهم نتائجها تمثلت فى إدراك الصليبيين لمدى التمزق السياسى الذى كان العالم الإسلامى يعانى منه آنذاك .

وفى الوقت الذى إحتدم فيه القتال بين الصليبيين والسلاجقة فى أعالى بلاد الشام ، خرج الأفضل على رأس الجيش الفاطمى سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ليستولى على مدينة بيت المقدس من السلاجقة ويدمر جزءا من تحصيناتها ليمهد بذلك الطريق أمام الصليبيين الذين هاجموها فى السنة التالية واستولوا عليها . وعلى حد تعبير ابن الأثير . «ركب الناس السيف» ، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعا يقاتلون فيه المسلمين [٤] .

وقد أنشد «أبو المظفر الأبيوردى» [٥] قصيدة طويلة صور فيها سقوط بيت المقدس ، مطلعها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى ، أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت و من دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
وليتهم إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا فى الأجر إذ حمى الوغى ... فهلا أتوه رغبة فى الغنائم

فالشاعر يضغط على مشاعر المتلقى ويخاطب فيه النخوة والشهامة من خلال إحياء قيم الحفاظ على العرض والشرف . فليس الدفاع عن الدين فحسب هو مطلب الإنسان العربي المسلم بل الدفاع عن «المحارم» . ويصور شاعر آخر ما أحل بالمسلمين وبالعالم الإسلامى من ضياع وتمزق ، وكيف أصبح المسلم سلبيا فى ديارة [٦] :

أحل الكفر بالإسلام ضيما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح	وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا	ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا	على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق	وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل	لطفل فى عوارضة المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر	ويعيش المسلمين إذا يطيب
أما لله والإسلام حق	يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا	أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

وفضلا عن اشتراك تلك القصيدة مع سابقتها فى دعوتها لإعلان القيم العربية الإسلامية إلا أنها تتميز بوضوح أثر العلاقات الحضارية بين الشرق المسلم والغرب المسيحى . فالتأثيرات المسيحية تتراءى فى كلمات مثل «الدير» ، «الصليب» ، «دم الخنزير» وفى السلوك التترى المغولى الذي يخلو من الحس الحضارى «حريق المصاحف» وهنا يقدم الشعر مادة خصبة تصور جانبا من التاريخ الإجتماعي الذى يعكس مظاهر الحياة التى سادت إبان عصر الحروب الصليبية .

ومؤرخو تلك الفترة من الصراع العربى الإسلامى الصليبى يرون أن الحكام كانوا على حال من التنازع و الأنانية وقصر النظر بحيث أنهم عجزوا عن وقف المد الصليبى الذى وصل مداه فى غضون نصف قرن من نجاح الحملة الأولى . وكانت تلك هى الفترة التى شهدت عجز القوى العربية الإسلامية عن التعاون فى خلق جبهة موحدة ضد الصليبيين . وبين حين وآخر كانت الإمارات العربية تعقد بعض الاتفاقيات بقصد العمل المشترك ضد الصليبيين إلا أن تلك التحالفات السريعة كانت تنحل بنفس السرعة التى عقدت بها بفعل تراث الشك والحقد المتبادل بين الأمراء ، ونتيجة للحرص على المصالح الذاتية والقصور السياسى الذى دفع بعض الأمراء أن يتحالف مع العدو الصليبى ضد الحكام المسلمين .

ولقد صور الشاعر المسلم ضعف الوازع الدينى فى نفوس أولئك الأمراء المسلمين وانشغالهم بقتال بعضهم ، أضف إلى ذلك أن بعضهم كان يهادن الإفرنج ضد إخوانه المسلمين .

لنستمع إلى ابن الخياط (٤٥٠ هـ - ٥١٧ هـ) [٧] وهو يتوجه بحديثه إلى عضب الدولة زعيم الجيوش فى دمشق يحثه على الجهاد :

فـدتك الصـواهل قبـا وجـردا ... وشم القبـائل شـيبا ومـردا
وذلـت لأسـيافك البيـض قضـبا ... ودانت لأرمـاحـك السـمر ملـدا
وإنـى لمهـد إليـك القـريض ... يطوى على النصح والنصح يهدى
إلى كـم وقد ذخر المشـركون ... بسيل يهـال له السـيل سدا
وقد جـاش من أرض إفـرنجة ... جـيوش كمـثل جبـال تردا

أنومـا علـى مثل هد الصـفاة وهزلا وقد أصـبح الأمـر جـدا
وكيف تنـامـون عن أعيـــن وترتـم فأسـهرتموهـن حـقدا
وشـــر الضـغـائن ما أقبـــلت لديـه الضغـائن بالكـفر تحـدى

فالشاعر يقدم لمدوحه قوله الحق ، مستنكرا الواقع المتدهور الذى آلت إليه أمور المسلمين ، فى الوقت الذى تقاطرت فيه الجيوش الصليبية يسيل لعابها لافتراس الأراضى المقدسة التى تدر «اللبن والعسل» ويتساءل مستنكرا هذا التراخى ، وقد أصبح الأمر جدا لا يحتمل الهزل .

وكثيرا ما يضغط الشاعر على الشرف والعرض ليصور من خلالهما الوجدان الجمعى للأمة الإسلامية من خلال تصوير ما حل بالنساء المسلمات ، وبالأطفال والشيوخ العزل من السلاح . وهو هنا يستمد من موروث الحضارة العربية الإسلامية التى تحيط العرض والشرف بسياج منيع . كما أنه حريص على أن يستثير النخوة العربية الإسلامية فى المتلقى ، من خلال تصوير مشاعر الكواعب من الفتيات وقد ضربن صدورهن ولطمن خدودهن خوفا من الاعتداء على أعراضهن أما الأمهات فلم يرنق النوم أجفانهمن خيفة الاعتداء عليهن وعلى بناتهن . إن الشاعر هنا يمس وجدان المتلقى من خلال استثارة نخوته وحميته وتثبيت عزيمته دفاعا عن دينه . يصور ذلك فى قصيدته التى يقول فيها (٨) :

فحاموا عن دينـكم والحـريم محاماة من لا يرى الموت فقدا
وسـدوا الثغور بطـعن الخـور فـمن حـق ثغـر لـكم أن تشـدا
فلن يقدموا فى انتشار الأمور أخا تدرا حازم الرأى جلدا
يظـاهر تـدبيره بأسـه مظاهـرة السـيف كفا وزندا

كمــثل زعيـم الجـيوش الملى بعــزم يبـيت لـه الحزم ردا
وما دامت بأسـكم في اللقــاء ليست تحول عن النصر عهدا
فـدونكـم ظـفرا عاجـــــلا لكم جاعلا سائر الأرض مهدا
فقـد أينعت أرؤس المشــركين فلا تغفلــوها قطافا وحصدا
فـلابـد من حـدهم أن يفـل ولابــد من ركنهــم أن يهــدا

فالشاعر هنا يدعو الأمة الإسلامية أن تحمى دينها وعرضها وشرفها مؤكدا على قيمة من قيم الحضارة العربية الإسلامية . ويؤكد – فى صياغة جديدة – وفى لحظة حضارية متناظرة – قول أبى الطيب المتنبى :

ولـو أن الحيـــاة تبقى لحـى لعـددنا أضـلنا الشجـعانا

وعندما يمدح زعيـم الجـيوش نلمـس إستيـحاء مـدح المتنبى لسيف الدولة :

لكل إمـرىء من أمـره ما تعـودا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

وينبغى ألا نلاحق الشاعر بفكرة السرقات وإنما ينبغى أن ننظر إلى استدعائه اللحظة المماثلة . فعلى نحو ما جسد سيف الدولة حلم المتنبى . فإن الشاعر هنا يأمل فى الممدوح خيرا . فشدة بأسه عند لقاء العدو كفيلة بأن تحقق النصر .

الكتابة فى وجه الريح

على أن موقف الشاعر من المنافقين يدور فى دائرة إسلامية . فهو يهجو أولئك الأمراء الذين ظاهروا العدو وطالبوهم بالعودة إلى صف الوحده

الإسلامية يقول أسامة ابن منقذ [٩] :

هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرهـــا عذر فماذا جنى الأطفال والحرم
ألقيتهم فى يد الإفرنج متبعا رضا عدو يسخط الرحمن فعلهم

يأتى الشعر ليقدم للمؤرخ وثيقة فنية تدين موقف بعض الأمراء المتخاذلين . ففى سنة ٥٩٢ هـ قصد الفرنج بيروت ، وكانت تحت إمرة الأمير عذ الدين أسامة الجبلى ، الذى فر منها دون قتال تاركا المدينة تسقط فى براثن العدو الصليبى . فسخر منه الشعراء بأبيات تهكمية قال فيها :

سلم الحصن ما عليك ملامة ما يلام الذى يروم السلامه
إن أخذ الحصون لا من قتال سنة سنها ببيروت سامه
أبعد الله تاجرا سن ذا البيع وأخزى بخزية من سامه

فالشاعر هنا يصف تخاذل أسامة وضعفه وهو هنا يستند إلى معطيات تراثية تتمثل فى الحديث النبوي الشريف ، «من سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهمشئ» [١٠] .

لقد قام الشعر بدور إيجابى مؤكدا دور الفن فى المجتمع ، فى كشف أو تعرية النفوس المتخاذلة التى إن دعيت إلى القتال اثاقلت ، يحسبون كل صيحة عليهم . فيأتى الشعر ليكشف دورهم ويحذر المسلمين منهم .

على أن هذا الشعر الذي قيل فى هجاء القاعدين عن الجهاد والمنافقين قليل بالنسبة للواقع الذى كان يسود الساحة العربية الإسلامية

التى كانت تفتقر إلى الشخصية القيادية القادرة على توحيد الجبهه الداخلية والقضاء على التشرذم السياسى أولا وبدأت خريطة المنطقة تتغير بظهور الأبطال المجاهدين عماد الدين زنكى ، نور الدين محمود ، صلاح الدين الأيوبى .

وصف المعارك :

يقدم الشعر مادة وفيرة تساعد المؤرخ على تصور الأماكن التى جرى فيها الحدث التاريخى ، والقلاع و الحصون ، والأدوات الحربية . وقد صور أسامة بن مقذ : معارك المسلمين ، التى انتصورا فيها بقيادة نور الدين زنكى . من هذه القصائد ، قصيدة مطلعها : (١١)

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر ∴ لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
نسير إلى الأعداء والطير فوقنا ∴ لها القوت من أعدائنا ولنا النصر
وجيش إذا لاقى العدو ظننتهم ∴ أسود الشرى عنت لها الأدم العفر
ترى كل شهم فى الوغى مثل سهمه ∴ نفوذا فما يثنيه خوف ولا كثر
هم الأسد من بيض الصوارم والقنا ∴ لهم فى الوغى الناب الحديدة والظفر
يرون لهم فى القتل خلدا فكيف بالـ ∴ لقاء لقوم قتلهم عندهم عمر

وفى هذه القصيدة يفخر أسامة بالمعارك التى انتصر فيها جيش المسلمين ، ويصور كيفية أسر الجوسلين واسترداد قلاعه فى شمال حلب . كما صور المعارك التى دارت بين بلدوين حاكم بيت المقدس والمسلمين ، والتى انتهت بانتصار المسلمين على الصليبيين وفرار بلدوين من المعركة .

ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن ليخشى من الأيام نائبة تعرو

وفيها يقول – مستشرفا استرداد بيت المقدس ، فالغضب الساطع آت [١٢] :

ونرجع القدس المطهر منهم فلم يبق منها فى ممالكهم شبر

وقد تحدث «المقدسى» عن أسر جوسلين فى حوادث سنة ٥٤٥ هـ والصورة التى رسمها لجوسلين تكشف عن مدى فداحة الخساره التى لحقت بالصليبيين [١٣] ورغم حرارة وصف صاحب الروضتين فى رسمه لأسر الجوسلين إلا أن ذاتية الشاعر الفارس أسامة بن منقذ تتبدى من خلال الصورة الشعرية المصطبغة بدماء المعارك وأشلاء الأعداء . لقد بنى من جماجمهم قلاعا . ومن آيات صدق الشاعر الروح التلقائية العفوية التى تسرى فى نسج بناء القضية . ففرحة النصر صهرت اللغة فى بوتقة التجربة الواقعية مما أسعف الشاعر بالتقاط صوره الشعرية معتمدا على باصرته مستلهما ما توحى بصيرته – بأن استرداد القدس آت لا ريب فيه . ولم يلتزم بما الشعراء أنفسهم بالمحسنات اللفظية إنسجاما مع ذوق العصر .

ويذكر «أسامة» فى قصائد ، فتح الرها وتل باشر وتل عزاز [١٤] . وهكذا يقدم الشعر مادة تاريخية تساعد فى توثيق الخبر التاريخى . ولقد تآزرت فروسية الشاعر فى اهتدائه للجوانب اللافتة من وقائع الأحداث بدا ذلك فى تصويره للمكان (بحصونه وقلاعه) وللشخصية الصليبية بكل صلفها . ولا ننسى أنه هو نفسه ، فى كتابه «الاعتبار» أثنى على فضيلة الشجاعة فيهم ورأى أن لا فضيلة لهم سواها . لكن الصورة المتخاذلة التى رسمها للمقاتل الصليبى تعكس ما طرأ على الساحة العربية والإسلامية فى

صراعها مع الصليبيين .

ولم يقتصر الشعر على تصوير المعارك البرية بل إحتفظت المصادر العربية بتصوير الشعر للمعارك البحرية وللأساليب العسكرية التى إستخدمها المسلمون ، كالمنجنيق ، وتصور طائفة النقابين ومهمتها نقب الأسوار أثناء حصار المسلمين لقلاع الأعداء.

فيقول أسامة فى وصف معركة بحرية [١٥] :

بفرسان بحر فوق دهم كأنها ∴ على الماء طير مالهن قوادم

ومن مظاهر التأثيرات الحضارية أن كثيراً من ألقاب أو رتب البحرية قد تسربت من العربية إلى اللغات الأوروبية إبان تلك الحروب الصليبية وفى ظل الوجود الصليبى .

وعندما فتح المسلمون حصن المرقب سنة ٦٨٤ هـ صور الشاعر محمود بن سليمان الحلبى هذا الفتح بقصيدة . كما رسم صورة للمنجنيق وتأثيره فى تدمير الأعداء ولطائفة النقابين ، على نحو ما أشرت [١٦] :

والحصن من شفق الحديد كأنه ∴ عذراء ترفل فى رداء مُذْهَب
سامى السماء فمن تطاول نحوه ∴ السمع مسترقا رماه بكوكب
والمنجنيق كأنه من رميه ∴ حيث إستدارت مركب فى لولب

وفى وصف النقوب التى استخدمت فى فتح طرابلس يقول الشاعر [١٧] :

ومن تحتها تلك النقوب كأنها ∴ إذا ما تمشت فى ضمير الثرى سر

فزلزلتها بالركض فانهد ركنها ∴ ولم يبق من دون المنايا لها سر
قسمتهم شطرين غير غريقهم ∴ فللسيف شطر والقيود لها شطر

ووصف الشاعر أبراج مدينة عكا وهى تتساقط بفعل النار التى وضعت فى ثقوب الأبراج ، فالتهمتها . وقد خلع الشاعر على المدينة الحياة وكأنها تعقل فجعلها نصرانية ثم اتخذت المجوسية لها دينا ، فلما شاهدت النيران خرت لها ساجدة [١٨] ، [١٩] :

مررت بعكا عند تعليق سورها وزند أوار النار من تحتها وار
فعاينتها بعد التنصر قد غدت مجوسية الأبراج تسجد للنار

وفى سنة ٦٩١ هـ حاصر الملك الأشرف صلاح الدين ومعه الملك المظفر صاحب حماة قلعة الروم ، واستطاع فتحها بعد حصار ثلاثين يوما . وقال ابن كثير "وكان الفتح بعد الحصارعظيم جدا مدة ثلاثين يوما ، وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقيا" [٢٠] ، وقد وصف الشهاب محمود الحلبى هذا الحصار ، كما وصف القلعة وتحصيناتها المحكمة [٢١] ، [٢٢] :

محجبه بين الجبال كأنها إذا ما تبدت فى ضمائرها سر
يحيط بها نهران يبرز فيهما كما لاح يوما فى قلائده النحر
علي هضب صم كلم صخرها الحديد وفيها عن إجابته وقر
يضل القطا فيها ويخشى عقابها العقاب ويهفو فى مراقبها النسر

فالقلعة عالية بين جبال مرتفعة ، وبين نهرين يمثلان مانعا مائيا ، وتقع فوق هضبة صماء أقوى من الحديد .

وعلى نحو ما سبق ، حاولت أن أرصد ملامح الصورة التى خلدها الشعراء المسلمون للمعارك التى نشبت بينهم وبين الصليبيين [٢٣] :

ملامح البطل المجاهد :

إن الشاعر يرسم صورة لبطولة المجاهدين فى الله ، وإن جند الله هم الغالبون . وهو حين يمدح البطل المسلم فهو يتكئ على قيم إسلامية بها يعبر البطل عن الوجدان الجمعى للمسلم . وقيمة الممدوح لا ترتبط بشخصيته ولا بصفاته العارضة وإنما بما يتحلي به من فضائل باعتباره تجسيدا لأحلام الأمة الإسلامية وأشواقها . الحلم الذى يحقق الفكرة الإسلامية التى محورها «الهداية» [٢٤] فى مقابل الفكرة التى تدور حولها المسيحية «فكرة الخلاص» والتى كانت بمثابة «القناع» الذى أخفت الحركة الصليبية أطماعها التوسعية الدنيوية من ورائها [٢٥] .

وقصيدة القدسيات ارتبطت ارتباط اللحمة بالسداة – بالبطل المجاهد محاولة رصد مسيرته وهو يسعى لتحريرها من رجس الشيطان ، كما تصوره وهو يحارب لاستردادها ثم وهو يسقط شهيدا . وبالمقابل ترسم صورة للمقاتل الصليبى . ويمكننا أن نلمس جذر هذا التيار فى القصائد التى عرفت في التراث العربى بـ «المنصفات» وهى القصائد التى تشيد ببطولة الأعداء .

وقد تميزت قصيدة القدسيات بتآزر عناصر أو أركان العمليه التاريخية ، والفنية معا ، الإنسان «البطل المجاهد» و «المكان» بيت المقدس وما حوله من مدن وقلاع كانت هدفا للصليبيين ، ومن هاتين الضفيرتين المجدولتين مضى الشاعر يسبح فى نهر «الزمن» . ومن هنا نفهم ما طرأ على مفهوم البطولة من تغيير . فلم تعد تمجيدا للفرد بل

أصبحت بفضل تعاليم الإسلام تفانيا فى نشر الدعوة الإسلامية وجهادا لإعلاء «لا إله إلا الله» انسجاما مع فكرة «التوحيد» .

و الملاحظ أن المكان «بيت المقدس» وما حوله - يتحول إلى رموز تدور فى إطار الفكرة الإسلامية . فالبطل المسلم يهدم الصليب كما هدمت من مكة الأزلام والأنصاب .

وهذا الفتح يحيى هدى الله ويميت الشرك . وهنا تأتى المقابلة بين الهدى والشرك . وبين الإحياء والإماتة لتكشف عن الطباق النفسى الذى يتوحد فيه الشاعر مع الممدوح - ليس رغبة فى العطاء على الأرجح - لقاء ما قدم من عطاء . ولما حقق للمسلمين من آمال حيث تحول **«المثال»** إلى واقع ماثل بإسترداد «بيت المقدس» وما حولها من مدن وقلاع . ولنستمع إلى العماد الأصفهانى وهو يهنىء صلاح الدين بفتح القدس [٢٦] :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا ∴ وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا فى الأرض سبعة أبحر ∴ ولسنا نري إلا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى ∴ وبطشته الكبرى وعزمته القعس
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا ∴ ينير بما يولى لياليناالدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم ∴ عداتك حين الأرض فى الفتك لا الأنسا
فلا يستحق القدس غيرك فى الورى ∴ فأنت الذى من دونهم فتح القدسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدساً ∴ فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم ∴ فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها ∴ وألبستها الدين الذى كشف اللبسا

ويقول الشاعر الجوانى (محمد بن أسعد بن على بن معمر) [٢٧] :

أترى منامـا ما بعـينى أبصـر ... القدس يفـتح والفرنجـة تكسر
قد جاء نصر اللـه والفتح الذى ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشام وطـهر القدس الذى ... هو فى القيامة للأنام المحـشر
من كـان هـذا فتحه لمحمـد ... ماذا يقـال له ومـاذا يذكـر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقهـا عمر الإمـام الأظـهر
ولأنت عثمـان الشـريعة بعـده ... ولأنت فـى نصـرة النبوة حـيدر

الشاعر هنا يصور انتصارات الناصر صلاح الدين . وهو حريص على أن يقوم بعملية اختزال تاريخى يستوعب خلالها العناصر التراثية التى يحشدها ، مستخدما أدوات تشكيل أو بناء القصيدة ، مستخدما المقابله بين الفتح والكسر ، والتضمين من القرآن الكريم «جاء نصر الله والفتح» .

وهو قد أوتى حكمـة يوسـف الصـديق وحسن تدبيره ، وعدالة عمر، وهو الذى يجسد الشريعة . إنه الإنسـان الكُمَّـل الذى ينصر النبوة ويحقـق العـدالة .

ولكى تتكامل الصورة لابد من الوقوف أمام الصدى الذى خلفه سقوط البطل المجاهد شهيدا ، فى وجدان الأمة الإسلامية . فالشاعر يصور فى مرثيته الآمال الضائعة بفقد البطل الإسلامى . وإذا كان الشاعر فى مديحه قد مجد القيم الإسلامية التى جسدها البطل ، فبفضله تحقق حلم الأمة الإسلامية فى النصر على الكفار ، وحلمها أن يتحقق هذا من خلال البطل المجاهد الذى يجسد الفضائل الإنسانية التى جاء بها الإسلام ، فإنه فى الرثاء يأسى لهذه القيم التى تداعت بفقد عماد الدين زنكى ، ونور الدين

محمود وصلاح الدين الأيوبى .

والمصادر التاريخية تحكى عن الخلافات التى نشأت بين نور الدين وصلاح الدين . لكن الشعر لا يقف عند هذه الخلافات القشرية بل يطمح أن يرتقى إلى آفاق عليا .فينظر فى شمول يستوعب الموقف الكلى الكونى فيذيب هذا التنافر ويصهره فى بوتقة « لوحدة الإسلامية» فيمدحهم جميعا لإتفاقهم على استراتيجية أو هدف محدد : الدفاع عن «دار الإسلام» وإن تشعبت السبل .

والشاعر فى رثائة لا يقف عند مجرد توقف (**الفعل**) بفعل غياب «**الفاعل**» من جملة البشر . وسقوط البطل المجاهد ، إنما هو فى عمق معناه يرثى الحلم الذى ضاع . فالقصيدة تأتى مرثية للآمال الضائعة . ينبغى أن نقرأ قصيدة الرثاء فى «القدسيات» ليس على أنها من المناسبات التقليدية ، وإنما على أنها حبلى بالمواقف الإنسانية .

فى «ذيل تاريخ دمشق » [٢٨] يذكر ابن القلانس خبر مصرع عماد الدين زنكى إنه إستشهد ليلة الأحد السادس من شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، قتله غلام له فى أثناء محاصرته قلعة دوسر المعروفة بقلعة جعبر» .

والخبر يرتكز على بعد مأساوى : جريمة قتل لمجاهد فى الله . لم يحفظ التاريخ اسم القاتل لأنه «**نكرة**» ، والجريمة نكراء . لكنه خلد المجاهد البطل لأنه «**علم**» . الخبر التاريخى مادة خام تقدم للشاعر المادة التى ينطلق منها بخياله المقيد ، بالحدث التاريخى ، وبالوقائع المادية ، ليحلق فى

عوالم «معنوية» ينسج من المادة التاريخية أوالخبر التاريخى صورة شعرية . فيها يسعى أن يصور ملامح البطل المجاهد . واللافت للنظر هنا أن المؤرخ هو نفسه شاعر . لكنه وإن كان فى روايته للخبر التاريخى قد التزم بتقاليد المؤرخ الموضوعية ، إلا أنه فى شعره ، قد سمح للفنان فى داخله أن يظهر ، وأن يرسم إنطباعات عن صورة أو ملامح عماد الدين ، من منظور ذاتى . ولعل القارئ يلمح مدى التماس بين «الموضوعى» و«الذاتى» . بين الخبر والصورة الشعرية .

نعود إلى القصيدة لنتعرف على أبعادها ، وكيف صور ابن القلانس المجاهد البطل « عماد الدين زنكى » يقول فى قصيدة مطلعها :

كذاك عماد الدين زنكى تنافرت ... سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نُضار وجوهر ... وأنواع ديباج حوتها مخاتمه

إلى أن يقول :

وكم معقل قد رامه بسيوفه ... وشامخ حصن لم تفته غنائمه
ودانت ولاة الأمر فيها لأمره ... وقد أمنتهم كتبه وخواتمه
وأمن من فى كل قطر بهيبة ... تُراع فيها أغرابه وأعاجمه
وظالم قوم حين يذكر عدله ... فقد زال ظلمه وخصائمه
وكم ثغر بإسلام حماه بسيفه ... من الروم لما أدركته مراحمه

إن الشاعر هنا يرسم تفاصيل صورة البطل المجاهد الذى يفتح القلاع والحصون المنيعة والبروج المشيدة . والصورة التى يحرص على تمجيدها دائما تستمد من قيم البطولة الإسلامية . وهى صورة تطالعنا فى محيا الأبطال : عماد الدين زنكى ، نور الدين محمود ، صلاح الدين

الأيوبى . فالشاعر يتكئ فى مديحه على الفضائل الأربع :

العقل ، الشجاعة ، والعدل ، والعفة [٢٩] ويشعر القارئ للشعر فى العصر الأيوبى أن الشعراء يتعمقون فهم القيم الإسلامية وينبرون للدفاع عنها مقتبسين من القرآن ، المفاهيم والمعانى التى شرعها فى السلم والحرب ، مؤكدين على القيم الإسلامية كالعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد ، مدركين ما يجب أن يكون عليه المجاهد فى سبيل الله ، من شجاعة وتجرد عن أطماع الدنيا ، مبرزين الصفات التى يجب أن يتحلى بها السلطان القائد من صلاح وعدل وزهد وتقوى وتواضع وتفانى دفاعا عن حرمات الله ومقدسات الإسلام . كى يستطيع أن ينتزع النصر من عدو كافر همجى [٣٠] .

والحلم فى ظهور الحاكم العادل . من القضايا التى احتلت جزءا متميزا فى الفكر الإسلامى . وتتراءى تجليات الفكرة فى آراء الفارابى السياسية فى مدينته الفاضلة ، وفى فلسفة إخوان الصفا. وتتسرب فى وجدان المثقف العربى المسلم ليحلم بالمهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا. هذا الحلم الأسطورى يجعل من سقوط البطل شهيدا، بعد إذ ظهر وبدأ يحق الحق ويرسى دعائم العدل ، يجعل الشاعر – وهو فى الطليعة المثقفة – فى منحنى نفسى متأزم . إذ يشيع فى القصيدة الإحباط على ضياع الآمال التى تعلقت بالبطل . ومن جهة أخرى يتمثل الوجه الآخر من السلاح ، إذ قد يشيع هذا الإحباط لدى المتلقى اليأس من الخروج من المأزق .

وهنا قد يمثل هذا المنحنى من التوجه النفسى والفنى إدانة للشاعر لما يشيع من عدوى الإحباط الذى يرى أن مصائر الأمم رهن بمصير الفرد .

وإن كانت الأمة الإسلامية فى تلك الفترة تفتقد البطل المجاهد الفرد الذى يوحد ، ولا يفرق ، يصون ولا يبدد . يكون القدوة والأسى . البطل بالمعنى الذى حدده كارلايل.

نعود مرة أخرى لنتعرف على أبعاد الصورة من خلال تصوير الشعر للمجاهد البطل ، فهذه المعايشة من خلال خلق علاقة بين المتلقى والنص الشعرى تعمق من أبعاد التصور النظرى المطروح . فابن الأثير يعمق من آفاق الصورة وأبعادها للبطل المجاهد «عماد الدين زنكى» .

فأعجب لمن قاد الجيوش ونفسه ... قسمان بين الكر والإقدام
يلقى الكتائب مفردا بكتائب ... من نفسه واليوم مكرر حامى
لا يرعوى عن أن يقارع وحده ... ألفا بأبيض صارم صمصام
يأتى الفتوح على الفتوح بسيفه ... وبرأيه و بعزمه المقدام
حتى إذا الأجل إنقضى مستكملا ... ما خط فى الألواح بالأقلام
لاقى الحمام ولم يكن مستيقنا ... أن الحمام سيبتلى بحمام

وقد حرص صاحب الروضين أن يقدم الملامح الجسدية للبطل المجاهد «نور الدين محمود» وصفاته [٣٢] الخلقية وملامحه الخلقية ، وسلوكه وموقف صلاح الدين [٣٣] . واللافت للنظر تركيزه على ما تمتع به نور الدين من رأى ثاقب ، وعقل راجح وحرص على التمسك بأهداب الدين . وفوق هذا عزوف عن مديح الشعراء له ، فليس لشاعر عنده من نعمة تجزى إذ كان لا يبذل أموال المسلمين إلا فى الجهاد وما يعود نفعه على العباد أما قول أسامة بن منقذ [٣٤] :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا ... له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة من المعاصى وفيها الجوع والعطش

فيحمل على الزهد لا البخل ، فهو نفسه القائل : (٣٥)

فـى كل عـــام للـبرية ليـــلة فيها تشــب الـنار بالإيقـــاد
لكن لنور الدين من دون الـورى ناران نــار قرى ونار جهــاد
أبـــدا يصرفهـــا نداه وبأسـه فالعـام أجمـع ليلة الميـــلاد
ملك لـه فـى كل جـــيد مـــنه أبهى من الأطواق فى الأجيـاد
أعلى الملوك يدا وأمنعهـم حمـى وأمــدهم كـفا ببـذل تـــلاد
يعطى الجزيل من النوال تبرعا من غير مســألة ولا بيـــعاد
لازال فى ســعد ومـلك دائـــم ما دامـت الدنيـا بغـير تفـــاد

وينبغى أن نتريث قليلا لنتعرف على نوعية العلاقة التى كانت تربط الشاعر بالحاكم . دع عنك العطاء المادى ، فأمامنا «نور الدين» وكما تحكى المصادر التاريخية ما كان لشاعر عنده من نعمة تجزى.

إن الشاعر هنا يرتبط بالممدوح لأنه يجد فيه نفسه ، يحد العقل الفعال الذى يدرك ببصيرتة نذر انهيار دعائم الحضارة العربية الإسلامية . وهو اليد القوية القادرة على الانتقال من **«القوة»** إلى **«الفعل»** . فالممدوح لا يمدح بصفته الشخصية ، وإنما تحول إلى رمز هذا التراث الحضارى . إنه قيمة حضارية (٣٦) . ومن ثم ، فبطولة الحاكم تأتى من أنها تجسد أحلام الأمة الإسلامية . وليس أدل على تمجيد الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية لأعلامها من إزدهار فن التراجم . وما يهمنا هنا أن نقول إن الصلة بين الشاعر والحاكم تفسر العلاقة النفسية من جانب ، كما أنها تشى بعلة التوجه الفنى أو الإتكاء على شعراء بعينهم جسدوا هذا الارتباط

النفسى مثل أبى تمام وأبى الطيب المتنبى ، ليصل - فى النهاية - إلى التواصل الحضارى . وقد عمقت اللحظة الحضارية التى اجتازتها الأمة العربية الإسلامية ، والتى عبر عنها فنيا الشاعر وصور معايشته لها ، أقول عمقت ضرورة الارتباط بالتراث بوصفه الهوية التى يعتصم بها الفرد وتتمسك بها الأمة . ومعلوم أنه فى لحظات المواجهة الحضارية تعتصم الأمم بأمجادها وتراثها وتقبض بيدها على جذورها فى محاولة لتثبيت شجرة الحضارة العربية الإسلامية وقد تعرضت للرياح تتناوشها شرقا وغربا. فكان من الطبيعى أن تعتمد على التراث وعلى الماضى .

بين التقاليد الشعرية والمثل الأعلى

إن أغراض الشاعر- مهما تعددت -تدور حول موضوعين أساسيين لا ينفصلان : الإنسان والطبيعة . يعنى أن أغراض الشعر إما أن تصف الإنسان فى أفعاله المتباينة أوحالاته المتعددة ، ممدوحا أو مهجوا أو مرثيا . وإما أن تصف عناصر الطبيعة وتقتنص مظاهرها بأداة التشبيه .

وعلة عدم انفصال هذين الموضوعين - الإنسان والطبيعة - أن الشاعر يحاكى كليهما ويبحث عن الأساسى فيهما . فى المديح والرثاء ، يحاكى الشاعر الإنسان باعتباره نموذجا لجنسه ، أى أن الفارق بين هذين الغرضين فارق عرضى لكن في تغير الزمن ، أو وضع «يكون» موضع «كان» ، لكن الجوهر واحد ، وفكرة النموذج التى يصعد اليها الشاعر موضوعه الشعرى واحدة فى كليهما [٣٧] . وعلى حد تعبير «قدامة بن جعفر» [٣٨] إنه ليس بين المرثية والمدحة فضل إلا أن يذكر فى اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل «كان» و «تولى» و«قضى نحبه» وما أشبه ذلك ، وهذا

ليس يزيد فى المعنى ولا ينقص منه ، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به فى حياته وكأن الشاعر يصف النموذج البشرى بالإيجاب مرة ، فيجعله أفضل مما عليه البشر العاديون ، وبالسلب فى أخرى فيجعله أخس من البشر العاديين أيضا . اوفى هذا التجاوز فى التصوير ، أو فى هذا التجاوز فى المحاكاة ينطوى الشعر على مغزى أخلاقى لا ينكر (٣٩) .

وعند قدامة أن مدح الشئ ينبغى أن يكون بفضائله التى تميز جنسه لا بما هو عرض فيه . وإذا كان الأصل فى الشعر هو المدح ، والأصل فى المدح هو الإنسان ،فينبغى أن تتحدد الفضائل الخاصة للإنسان ، من حيث هو إنسان ، لا من حيث هو كائن يشارك غيره فى النوع . والفضائل الخاصة بالإنسان هى : العقل ، والشجاعة ، والعدل ، والعفة ، .. والمصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال لا بغيرها ، والبالغ فى التجويد إلى أقصى حدود من استوعبها ولم يقتصر على بعضها (٤٠) .

والحديث عن الفضائل هنا يحدد الموقف الحضارى للإسلام من جانب ويذكرنا بالفضائل الأربع التحدث عنها أفلاطون - . فمفهوم العدل - على سبيل المثال - يعنى عند «أفلاطون» أن يلتزم كل فرد حدود الطبقة التى ينتمى اليها تبعا لطبيعته وتكوينه ، ولا يحاول أن يتعدى نطاقها الخاص أو يتطلع إلى غيرها من الطبقات (٤١) وهذا المفهوم للعدالة يتباين ومفهوم الإسلام الذى لا يؤمن بالطبقة ، بل يسمح للفرد بالانتقال من مستوى إلى آخر تبعا لجده وعمله وتقواه . وعلى هذا فلا يمكن أن تتحدد فضائل الإنسان على أساس عرقى يتصل بنسب محدد أو جنس محدد ، أو أساس وراثى يرد قيمة الإنسان إلى ما يرثه عن أسلافة من تميز طبقى أو

ثراء مادى. وذلك فهم للأخلاق لا يتنافر مع الإسلام الذى يرد التمايز بين البشر إلى «التقوى» ويربط هذه التقوى بالمسعى الإنسانى إلى العدل أو الوصول إلى السعاده فى «الدارين» وأهم من ذلك – هنا – أنه يمكن أن يتحول إلى معيار يحدد البعد الأخلاقى للمعنى الشعرى [٤٢] .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن الحديث على الفضائل الأربع أصبح من التراث الفلسفى الشائع والذى انسرب إلى عقول المثقفين . وطبيعى أن تأتى صورة المديح والرثاء مرتكزة فى أبعادها على الفضائل الأربع .

ومن جانب آخر ، فإن رثاء المدن عند سقوطها ، ليس مجرد وقوف أمام طلل . وليس مجرد احتذاء لتقاليد بناء القصيدة والسير وفق عمود الشعر على نحو ما حدده نظريا المرزوقى شارح حماسة أبى تمام [٤٤] ومن ثم فرثاء المدن «سقوط بيت المقدس والمدن الإسلامية التى تعرضت للهجمة الصليبية فى المشرق وفى الأندلس» يرد إلى حنين الشاعر «للفردوس المفقود» .. أملا فى «اليوم الموعود» لتعود مرة أخرى .

وثمة حرص شديد من الشاعر ، ومن وراء هذا الحرص الشعور بالمسؤلية ، أن يستند الحاضر على أسس ثابته فى الماضى ، وذلك حتى لا يعمل الحاضر فى فراغ ، أو يصوغ على غير مثال . وينبغى أن نفهم روح المحافظة العميقة هذه فى سياقها الصحيح ، فالرؤية الفنية الخاصة لا تكون فعالة إلا إذا عملت ضمن سياق خاص يعطيها معناها وقيمها ، ويبرزها باعتبارها حلقة فى تطور تقالـيد بعينها . من هنا جاء الحاح ت . س اليوت – فيما يتصل بالثقافة الأوروبية – على قضية التقاليد ، ورؤية

الحاضر فى ضوء الماضى . وعلى قضية الإستمرار الذى هو جوهر التطور الحضارى[٤٥] .

إن قضية الاستمرار أو التواصل الحضاري هى شغل الشاعر الذى كان يسعى أن يصل حاضره بماضية ، فى شوق أسطورى يستوعب الماضى بكل ما فيه ، وأن يرى الحاضر فى ضوء الماضى . والقراءة الفاحصة تنبئ عما يمكن أن يسمى بالطباق النفسى . فهو يريد أن يتجاوز اللحظة الحضارية بكل ما فيها من تمزق وإفلاس ، معتصما بجذوره ، متشبثا بشجرة حضارته العربية الإسلامية ، وقد عصفت بها الرياح فأصبحت كأعجاز نخل منقعر. بين مذاهب إسلامية متلاطمة من الداخل وتمثل ذلك فى الإنشطار المذهبى بين السنة والشيعة ، وتراخى أمر بعض الأمراء وتحالفهم مع الصليبيين فى الغرب ، والمغول فى الشرق . وفوق ذلك التشرذم السياسى . كل ذلك جعل من الطبيعى أن يفزع الشاعر إلى تراثه يستقى من معنيه صوره وأخيلته .

والشاعر هنا ، فى قصيدة القدسيات وفى شعر الجهاد ضد الصليبيين ، يستخدم هذا المعطى التراثى «بكاء الأطلال ورثاء المدن، والمديح والرثاء» ، ليتجاوز هذه التقاليد التى تحولت إلى رمز فنى وليست تقليدا يسلب الواقع الحرفى محتواه التاريخى وملابساته الاجتماعية . إنه أمام ما أسميه بـ **«الطلل الحضارى»** .

ولا يمارى أحد أن الشاعر – فى أى عصر هو فى الطليعة المثقفة وأقول الشاعر لأنه يشعر ما لا يشعر غيره – ومعلوم أن الشاعر ارتبط بالبلاط وبالحاكم . وما يهمنا هنا هو تعبيره عن هموم مجتمعه وموقفه من

السلصة واتجاه الريح ، والتعبير عن هذا النبض ، وتلك الهموم فى اتجاه الريح (مدحا) أو فى وجه الريح (هجاء) لمن يخرقون السفينة أو فى سكون العاصفة (رثاء) وتصوير الشاعر فى علاقاته ، والمجتمع الحاكم فى تناقضاته .

من هنا ينبغى أن نعى اللحظة الحضارية التى أفرزت هذا التراث الشعرى الذى صور فنيا الصراع بين المسلم والصليبى . وهو الصراع الذى يرتد فى بعده العقائدى إلى فكرة الإسلام ومحورها «الهداية» فى مقابل فكرة المسيحية ومحورها «الخلاص» . من هنا كان وعى الشاعر بوظيفته الاجتماعية على أنها تقوم على التنبيه وليس التمويه «مستعيرا تعبير الحريرى فى مقاماته» .

وما سبق لا يعدو كونه محاولة للتعرف على أبعاد القضية أو لنقل إنها مشروع قراءة نقدية لشعر الجهاد . فقبل البذار ينبغى أن نقلب الأرض جيدا . وقد حاولت . وآمل أن تكون هذه الدراسه نواة لمشروع أطمح فى انجازه عن الشعر البطولى فى العصر الأيوبى .

هوامش :

* اعتمدت فى الحديث عن الخلفية التاريخية على محاضرات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك - القسم الإول - المدخل للدكتور قاسم عبده قاسم .

(١) من الأهمية أن نقف أمام الدلالة اللغوية لكلمة بطولة وما تحمل فى أعطافها من دلالة تاريخية - تعكس واقع المجتمع العربى . جاء فى

اللسان : بطل الشئ يبطل بطلا وبطولا وبطلانا : ذهب ضياعا وخسرا فهو باطل ... ويقال ذهب دمه بطلا أى هدرا . وبطل فى حديثه بطالة وأبطل هزل ، والباطل : نقيض الحق ، والجمع أباطيل ، على غير قياس ، كأنه جمع أبطال أو أبطيل ، هذا مذهب سيبويه . وأبطل جاء بالباطل ، والبطلة : السحرة ، مأخوذ منه ، وقد جاء فى الحديث ولا تستطيعه البطلة ، قيل هم السحرة . وتبطلوا بينهم : تداولوا الباطل ، والتبطل : فعل البطالة وهو اتباع اللهو والجهالة وأبطلت الشئ جعلته باطلا . وأبطل فلان : جاء يكذب وادعى باطلا . وقوله تعالى : «قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» سورة سبأ آية (٤٩) .

كما يشير معنى (البطل) إلى الشجاع ، ورجل بطل بين البطالة والبطولة شجاع تبطل جراحته فلا يكترث لها ولا تبطل نجادته ، وقيل : إنما سمى بطلا لأن الأشداء يبطلون عنه ، وقيل : هو الذى تبطل عنده دماء الأقران فلا يدرك عنده ثأر من قوم أبطال ، وقد بطل ، بالضم ، يبطل بطوله وبطالة أى صار شجاعا وتبطل . قارن شوقى ضيف : البطولة فى الشعر العربى ، ص١٧ وما يلى . طراد الكبيسى : شعر الحرب عند العرب ، الموسوعة الصغيرة ، بغداد ،١٩٨٣، ص٦ وما بعدها . فالتوجه المعرفى للكلمة يتشعب ويونق أزاهير من المعانى تدور حول إهدار الدم واتباع اللهو والجهالة والسحر. وهى معان تعكس البيئة الاجتماعية والتاريخية للعصر البطولى وتشى بظلال أسطورية تحيط بالبطل القادر على الخوارق من الفعال . كما تعكس معنى الشجاعة ومقارعة الأبطال الأشداء .

وجاء الإسلام فانقطع ذكر الأبطال أو كاد بانتهاء عصر البطولة الجاهلية . وطرأ تغيير فى معنى البطولة يتفق وما طرأ على المجتمع العربى الإسلامي من قيم . لم تعد البطولة تأكيدا لفردية المحارب بل كانت دفاعا عن قيم الدعوة الجديدة ، ويكتسب المجاهد فى الله قيمته ليس من مجرد صفاته الخلقية ولكن بقدر شمائله الخُلقية وامتثاله لقيم الإسلام وتمثيله أو تجسيده الفعال لها فكرا وسلوكا . قولا وعملا .

والمصـــادر التراثـية للبطـولة تصـــور كيف كان الشاعر الجاهلى يتغنـى بالمـــوت .

(٢) الجهاد محاربة الأعداء ، وهو المبالغة واستفراغ ما فى الوسع والطاقة من قول أو فعل ، وفى الحديث : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية. والمراد بالنية إخلاص العمل لله . أى أنه لم يبق بعد فتح مكة هجرة لأنها قد صارت دار الإسلام وإنما الإخلاص فى الجهاد وقتال الكفار. اللسان مادة جهاد وقارن كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، والفوائد لابن القيم الجوزية ، «الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية» ١٩٧٣ ، ص ٥٩ ، ٨٨ وقارن مادة كمل اللسان .

(٣) المرزوقى : شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين ، عبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشـــر ، ١٩٦٧ ، القســم الأول ، ص ١٩٧ .

(٤) الكامل ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، جـ ١٠ / ٢٨٤ .

** هو أبو المظفر الأبيوردى محمد بن أحمد القرشى الأموى المشهور

بالأبيوردى المتوفى بأصفهان سنة ٥٥٧ هـ . والقصيدة فى الكامل جـ١٠ / ٨٤ وابن تغرى بردى ، النجوم الزهراء ، جـ ٥ ، ط. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، د . ت ، ١٥١ ، ١٥٢ .

المذاكى : الخيل التى تم سنها وكملت قوتها ، الواحد مذك .

القشاعم : جمع قشعم ، وهو المسن من النسور .

(٥) النجوم الزاهرة ، جـ٥/١٥١ ، ١٥٢ .

(٦) وفيات الأعيان ١٠ / ٢٤٥ .

(٧) ديوان ابن الخياط الدمشقى / ١٨٢ وما يلى .

(٨) أنظر تعليق محمد الهرفى ، شعر الجهاد فى الحروب الصليبية ، دار الاعتصام ١٩٧٩ / ١٧٥ .

(٩) أنظر مرآة الزمان حـ ٨ قسم ٢/ ٤٥٣ ، مفرج الكروب جـ ٣ / ٧٤ ، الروضتين حـ ٢ / ٢٣٣ .

(١٠) صحيح مسلم ، حـ ٢ / ج

(١٠) صحيح مسلم ، حـ ٢ / ٧٤

(١١) ديوان أسامة بن منقذ / ٢٠٤

(١٢) نفسه / ٢٠٣

(١٣) الروضتين حـ ١ / ٠ .

(١٤) ديوان أسامة بن منقذ / ٢٠٤

(١٥) نفسه / ٢٢٤

(١٦) ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط) تحت رقم (٩١١)

المكتبة السليمانية . ولم يتسير لى الإطلاع على المخطوط واعتمادى فى النصوص الشعرية للديوان المخطوط على ما أورده الهرفى فى كتابه عن شعر الجهاد ، ص ١٣٧

(١٧) نفسه ، ١٨٧

(١٨) نفسه .

(١٩) نفسه ، ٢٠٥

(٢٠) البداية والنهاية ، حـ ١٣/٣٢٧

(٢١) نفسه .

(٢٢) المنتخب فى تكملة تاريخ حلب (مخطوط) / ٢١١

(٢٣) الهرفى ، شعر الجهاد ، مرجع سابق ، ١٤٢

(٢٤) راجع المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم مادة : هدى .

(٢٥) الروضتين حـ ٢ / ١٠١ .

(٢٦) نفسه / ١٠٢

(٢٧) نفسه / ١٠٥

(٢٨) ذيل تاريخ دمشق / ١٨٦

(٢٩) نقد الشعر / ٦٦

(٣٠) أنظر ، عدنان سكيك : الشخصية الإنسانية كما صورها القرآن الكريم وانعكاس مثلها على صورة البطل فى الأدب العربى ، رسالة دكتوراة ، غير منشورة ، ١٩٧٠ / ١٩٧٦

(٣١) التاريخ الباهر / ٧٤

(٣٢) قارن حسين مؤنس ، صور من البطولة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٦/ ٢٣٩

(٣٣) الروضتين ١/ ٢٢٨

(٣٤) نفسه ٢٢٩

(٣٥) نفسه ٢٣٠ ، وقارن صورة نور الدين على نحو ما صورها ابن منير ، وابن القيسرانى والعماد الكاتب . زغلول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبى ٢٢٩

(٣٦) راجع ملامح البطل فى الشعر ، أحمد أحمد بدوى ، صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه ، المكتبة الثقافية ، ١٥ أكتوبر ١٩٦٠ / ١١٠ .

(٣٧) د. جابر أحمد عصفور ، مفهوم الشعر دراسة فى التراث النقدى ، القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر / ١٣٦

(٣٨) نقد الشعر / ١٠٠

(٣٩) د. جابر العصفور ، المرجع السابق / ١٣٧

(٤٠) نقد الشعر / ٦٦

(٤١) د. فؤاد زكريا ، دراسة لجمهورية أفلاطون / ٨٥

(٤٢) د. جابر العصفور / ١٤٥

(٤٣) المرزوقى ، شرح ديوان الحماسة ، نشرة أحمد أمين ، عبد السلام هارون القسم الأول ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٧ ، المقدمة / ٣ وقارن ابن قتية فى الشعر

والشعراء.

(٤٤) أنظر د. الطاهر أحمد مكى ، أمرؤالقيس ، ١٩٧٩ / ١٥٤

(٤٥) د. محمود الربيعى ، نصوص من النقد العربى ، دار المعارف ، ١٩٧٦ / ٢٠ ، وقارن اليوت فى مجموعة مقالاته : Selected prose وبخاصة مقالته Tradition and Individual Talent وقد ترجمت إلى اللغة العربيه أكثر من مرة .

(٤٦) عن المواجهة الحضارية بين المسلمين والصليبيين أنظر أسامةبن منقذ فى كتابه الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، مطبعة برستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ ، ص ٣٢ وما يلى وقارن ذلك بما جاء فى رحلة ابن جبير ، دار صادر بيروت ١٩٦٤ / ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩. عن الأبعاد الحضارية لفكرة الجهاد وجذورها التاريخية :

See: Hadia Daiani - Shakeel ; Jihad in Twelfth-Century , Arabic Poetry . The muslim World , Volume LXVI April. 1976.P. 98 - 133 .